

أطروحتهما أن الإنسان الطبيعي ذئب شرس (وهذه صورة عضوية مجازية)، قادر على افتراس الآخرين وغير قادر على كبح غرائزه إلا عن طريق العنف. كما أن إسبينوزا شبه الإنسان بقطعة حجر دفع بها إنسان فأخذت تدور في الفضاء، فظنت أنها كائن (عضوي) حر الإرادة، وكامل الوعي! وتعمق الآلية في حالة نيوتن الذي شبه العالم بالساعة. ثم جاء لوك وبيّن أن الآلة ليست موجودة خارج الإنسان وإنما موجودة داخله، فعقل الإنسان هو صفحة بيضاء تتراكم عليه المعطيات الحسية، فتكون من تلقاء نفسها أفكاراً مركبة، تتشابه بدورها لتكون أفكاراً أكثر تركيباً... وهكذا.

وابتداءً من منتصف القرن الثامن عشر، بدأ الإنسان يشعر أن حلم الألوهية والتحكم في العالم لم يتحقق، وأن كرة النار (العلم) لم تأت له بالسعادة، وإنما بدأت تسيطر عليه وتهدده، ولذا بدأ يتحول بروميثيوس إلى فرانكنشتاين (صدرت رواية ماري شللي فرانكنشتاين عام ١٨١٨ وعنوانها الفرعي بروميثيوس الحديث). ويلاحظ أن فرانكنشتاين إنسان يتحرك بشكل آلي، وتم تركيبه بشكل آلي لكي يصبح كائناً عضوياً مستقلاً عن خالقه! ثم ظهر داروين الذي رأى العالم باعتباره غابة دموية. ومن ثم تحول كل من إنسان روسو الطبيعي وفرانكنشتاين إلى الدكتور جيكل والمستر هايد في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وهو كائن نصفه إنسان متحضر (أو ربما سوبرمان) عنده نزعة بروميثية، يحاول التحكم في نفسه وفي الزمان والتاريخ، والنصف الآخر إنسان طبيعي مادي مدمر (سبمان)، هو أقرب إلى الحيوان الوحشي منه إلى الإنسان. وفي القرن العشرين، تراجع فرانكنشتاين والمستر هايد، وجاء فرويد ليؤكد أن غابة داروين العضوية لا توجد خارجنا وحسب، وإنما توجد داخلنا أيضاً. ثم ظهر سيزيف الضائع المسكين، بطل الأدب الحديث، وهو كائن عضوي يتحرك بشكل آلي رتيب. وأخيراً ظهر كلب بافلوف، وهو كائن عضوي تماماً، يستجيب للمؤثرات بشكل آلي تماماً.

ويلاحظ، في كل هذه الأساطير العلمانية، أن الصورة الأساسية ليست صورة